هول أدب الرافعي

بين القديم والجديد

للأستاذ محمد أحمد الغمراوى

— ٥ —

لقد أخذنا على كاتب مقالات « بين العقاد والرافعي » أنواعاً من الأغلاط ذكرنا لكل منها أمثلة عدة دون استقصاء . فهناك أغلاط اضطراب فى التفكير كالتى ذكرنا فى كلمتنا الثانية؛ وهناك أغلاط جور وعجاجة كالتى عددنا فى كلمتنا الثالثة ؛ ثم هناك أغلاط ضعف فى الفهم أخطأ بها الكاتب لب الموضوع كالتى فصلنا فى الكلمة الرابعة . وكلها تدل دلالة واضحة على أن كاتب تلك المقالات لم يكن فيها يفكر بعقله وإنما كان يفكر بهواه

إلا أن أغلاط التفكير بالهوى ليست كلها فى الدلالة أو فى التبعة سواء . فان ذا الهوى المتعصب لمذهب أو لكاتب قد يتأثر عقله بعصبيته وهواه من حيث لايدرى، فيقع فى الخطأ من حيث لايقصد، وتكون آثار الهوى والعصبية ظاهرة فى كتاباته وأحكامه لكل إنسان سواه هو ومن لف لفه . مثل هذا لا يزيد الهوى والعصبية على أن يفسد عليه تفكيره فتصبح أفكاره وآراؤه وأحكامه غير ذات قيمة، ولكن من غير أن يحمل فى ذلك تبعة خلقية نذكر

أما إذا تأثر ذو العصبية والهوى بعصبيته وهواه إلى الحد الذى يشعر بأثرهما فى رأيه وحكمه ثم لا يقاومهما مقاومة مجدية ولكن يتابعهما ويطاوعهما فيما يوحيان إليه من إخفاء مالا يوافقهما من الحق ، وتحريف ما يخالفهما من الواقع ، فانه عندئذ يكون قد جمع على نفسه ضعفين : ضعف العقل وضعف الخلق ؛ وتحمل فى سبيل هواه تبعتين : تبعة الخطأ وتبعة سوء النية فيه .

وقد كان فيما نبهنا إليه بالفعل من أغلاط ذلك الكاتب غلطتان لا يمكن حملهما على مجرد الخطأ العقلى . وقع فى أولاهما حين أراد أن يعتذر عن تغيير رأى كان ارتآه ، فيه بعض مدح للرافعى ، ووقع فى أخراهما حين أراد أن يعتذر عن سوء فهم لبعض ما قال الرافعى نبهه إليه الفاضل الفلسطينى على كمال . وقد اعتذر فى كلا الموقفين بما يخالف الواقع : إعتذر فى الموقف الأول بأنه لم يكن حدد نوع الدهن حين قال إن الرافعي أديب الدهن ، والواقع أنه كان حدده تحديداً واضحاً ، وحدده بنفى بعض الأقسام التى قسم إليها الدهن عند اعتذاره ذلك . واعتذر فى الموقف الثانى باضطراب وقع خطأ فى ترتيب الجمل التى عبر بها عن رأيه ، والواقع أنه لم يكن فى ترتيب جمله تلك أى اضطراب ، ولم يكن له عذر فى مخالفته الواقع فى ذينك الموقفين ، لأنه كان يستطيع الاستيثاق مما قال أو كتب بالرجوع إلى ما كان قد خطه قلمه فى موضعه من كلامه إن كان ضعف الذاكرة هو الذى جعله ينسى حقيقة ما كان قد كتب ولم يكن قد مضى عليه أكثر من أسبوعين . لكن الذى به ليس هو ضعف الذاكرة ولكن صعوبة أو استحالة يجدها فى الاعتراف بحق إذا كان عليه ، فاعتذر بما اعتذر به رغم مخالفة الواقع اعتماداً فيما نظن على أن القراء يقل فيهم من يكلف نفسه عناء مضاهاة ما زعم بما وقع منه بالفعل

لكن هاتين السقطتين ليس لهما فوق دلالتهما النفسية أية أهمية ذاتية إذهما منه وإليه . هو أخطأ وهو يجتهد فى ستر خطئه عن الناس ولو بشىء من التوسع فى تحديد الصدق . فاذا كان قد فارق الصدق بهذا فالضرر لاحق به هو لا بغيره . أما إذا كان ضرر ذلك يعود على غيره من قريب أو من بعيد فان وجه المسألة يتغير بقدر ذلك . ويصبح وجه المسألة أشد تغيراً إذا كان الذى يتناوله بالتحريف والتلفيق كلام غيره لا كلامه هو . أما إذا كان الكلام المحرف أو الملفق هو كلام شخص يكرهه قد تصدى هو لنقده وكان التحريف والتلفيق من شأنه أن يؤذى الشخص المنقود كما وقع للرافعى ، فإننا عندئذ نصبح أمام مسألة جديدة تتعدى الإنصاف فى النقد إلى الأمانة فى النقل ، وتتجاوز الخطأ فى الرأي إلى التدليس العمد وإلى محاولة النيل من الخصم فى النقد الأدبى عن طريق غير شريف

ومقالات « بين العقاد والرافعى » لم تبرأ من هذا العيب . ولعلنا كنا نعفو فلا ننتبه إليه لولا غرور ومكابرة يبدوان فيما يكتب صاحبها ، ولولا أن صاحبها جعل من الفروق الأساسية بين مدرستى « الرافعى والعقاد » امتياز الثانية على الأولى بما سماه

« الصدق الجميل » من ناحية ، وتصحيح الأمزجة والنفوس بالأدب وللأدب من ناحية أخرى . فنحن مضطرون إلى تبيين ظاهرة كالتي أشرنا إليها ، لا لأنها من الواقع فحسب ، ولكن وفاء بحق النقد واختباراً لتينك الميزتين أمتحققتان هما فى الكاتب كنموذج للمدرسة التى ينتسب إليها أم غير متحققتين

والزلات التى سقط بها الكاتب وجانب فيها الصدق يصح تقسيمها إلى قسمين : قسم يتعلق بتحريف ما كتب إخوان الرافعى عن الرافعى ، وقسم يتعلق بما كتب الرافعى عن نفسه ، وهو أهم الاثنين

ونحن إذ نتعرض لتحريف الكاتب بعض ما قال الأستاذان سعيد العريان ومحمود شاكر لا نريد بذلك أن ننصفهما ، فهما قادران على الانتصاف حين يريدان ، ولكن نريد أن ننصف الرافعى الذى استعان الكاتب على الاساءة إليه بتحريفه قول صديقيه ، متخذاً من قولهما المحرف شاهداً عليه

وأول مايلقى الناقد من هذا النوع من سقطات ذلك الكاتب تزيُّده فيما قال العريان في موضعين على الأقل فى مقاله الأول : أولهما يتعلق برغبة الرافعى عن شراء « وحى الأربعين » وهى نقطة تافهة لولا أن صاحبنا المحلل النفسى مولع باستخراج الخطير من التافه . وثانيهما يتعلق بالبواعث التى دعت الرافعى لنقد « وحى الأربعين »

وقد قدم الكاتب بين يدى ما اقترف قوله : « إنما يعنيني اليوم ما كتبه الأستاذ سعيد العريان ! ففيما كتبه وهو أخص أصدقاء الرافعى مصداق لكثير مما تخيلته فيه » . ثم انتقل إلى تفصيل ما أجمل فى هذه العبارة فقال :

« فى إباء الرافعى أن يشترى كتاب وحى الأربعين مع حاجته لنقده ما يشير إلى ضيق الأفق النفسى الذى كان يعيش فيه ، وتصوير للون من الحقد الصغير قلما يعيش فى « نفس » رحبة الجوانب الخ »

فأنت ترى كيف أجدت مطالعاته في مباحث علم النفس الحديثة هذه المقدرة على استنتاج الخطير من التافه . وسنسلم له أن كل ما استنتج من ضيق الأفق النفسي والحقد الصغير أو الكبير ينتج من إباء الرافعى شراء كتاب وحى الأربعين مع حاجته لنقده . سنسلم له تلك النتيجة من هذه المقدمة ! لكن بقى أن نثبت المقدمة حتى تصح النتيجة وإلا كان هذا الرجل يفتري على الناس مرتين : يفترى الشتم ويفترى الأسباب إليه . وقد اعتمد كما ترى فى ثبوت هذه المقدمة على ما كتب أخص أصدقاء الرافعي ، سعيد العريان . فاذا صح هذا فله بعد ذلك أن يستنتج منها ما شاء طبق وحى قراءته الحديثة فى علم النفس . وواضح أن مدار الاستشهاد فى تلك المقدمة ليس هو إباء الرافعى أن يشترى كتاب العقاد — فما نحسب العقاد ولا قطباً يشتريان شيئاً من كتب الرافعى — ولكن موضع الاستشهاد هو إباء الرافعى شراء الكتاب « مع حاجته لنقده » . فعبارة « مع حاجته لنقده » هى مدار الاستشهاد فى الواقع . وعمدة قطب فى إثبات هذه الحاجة عند الرافعى هو سعيد العريان

لكن سعيد العريان لم يقل شيئاً من هذا بل أخبر بعكس هذا ، أخبر فى مقاله الخامس والعشرين (رسالة ٢٤٠) أنه هو حرض الرافعى على نقده « وحى الأربعين » انتصافاً لمخلوف ولمار العلوم ، وأن الرافعى أبى أولا ثم أجاب على شرط ألا يكون هو مشترى الكتاب « لأن عليه قسما من قبل ألا يدفع قرشاً من جيبه فى كتاب من كتب العقاد ... ! »

ولسنا ندرى متى أقسم الرافعى ذلك القسم ، وليس هذا بمهم الآن ، إنما المهم أولا أن الرافعى لم ير حقى فى رغبته فى إرضاء صديق ما يبرر نكثه بذلك القسم ، وهذا إن دل على شىء فهو يدل على أن الرافعى أقسم حين أقسم عن عقيدة ، واستمسك بذلك القسم حين استمسك عن عقيدة ، وهذا ضد ما ذهب إليه قطب فى أن الرافعى كان يصدر فى أدبه عن غير عقيدة . ثم المهم ثانياً أن الحاجة إلى نقد « وحى الأربعين » لم تكن بالرافعي ، ولكن بسعيد العريان . العريان حرض الرافعى على النقد كما ذكرنا — ولرغبته فى رؤية الأديبين الكبيرين يتصاولان . لكن المسألة على هذا الوضع المتفق مع ما أخبر به صديق الرافعي ، ليس فيها شىء يشهد لقطب في شىء مما يريد . فاذا يفعل سيد قطب وهو يريد أن يستشهد لنفسه بصديق الرافعى على الرافعى ؟ ينقل حاجة العريان إلى نقد « وحى الأربعين » فينسبها إلى الرافعى ، ويترك الخبر بعد تحريفه منسوباً إلى العريان كما كان ، فيكون العريان بذلك هو الذى شهد على الرافعى ، ويتم لقطب ما يريد من الاستشهاد.

ولا بأس في ذلك على ما يظهر عند المدرسة الجديدة التي يمثلها سيد قطب ، والتي يميزها عن المدرسة القديمة مذهب « الصدق الجميل »

أما الموضع الثاني الذي تزيد فيه قطب ليستشهد بالعريان على الرافعي فقوله من نفس المقال :

«وفي البواعث التي تدعوه لنقد «وحي الأربعين» كما صورها صديقه ما يصور نظرة الرجل إلى النقد والأدب والغاية منهما ومدى نظرته العامة للحياة واتساع مداها في نفسه ، وهو لا يبعد كثيراً عن المدى الذي تصورته له » وليس في هـذه العبارة شيء حتى تأتي إلى آخرها فتنقلب دلالتها عندك ويصبح الرافعي المسكين بين صديقه وعدوه قد اجتمعا في الجملة على تجريحه وذمه وكأنها لا يكلف نفسه بها شيئاً ، فهو يلقيها دعوى عريضة ثم يتحقق بعد ذلك من صحتها من شاء أو لينقضها من شاء ! أما هو فلا يكلف نفسه من إثباتها شيئاً، ويكفيه أن ينتفع فيها بالايحاء النفسي معتمداً على تصديق القارىء إياه فيما يلقى في روعه عن تصوير صديق الرافعي لبواعث الرافعي على نقد وحي الأربعين . وأكثر القراء حتى من أنصار الرافعي لا يجشمون أنفسهم اختبار صدق دعوى سيد قطب هذه بعرضها على ما قال العريان في موضعه من فصوله في تاريخ الرافعي ، فيمر أكثرهم وقد وقر في نفوسهم شيء من هـذا الانفاق ولو في الجملة بين صديق الرافعي وعدوه على تجريح الرافعي

إنك تقرأ تاريخ نقد الرافعي وحي الأربعين فيما قصه العريان في فصليه الخامس والعشرين والسادس والعشرين فلا ترى أساساً لهذا الذي يدعيه قطب ، بل ترى شيئاً ينقض في صميمه دعواه هذه وينقض غيرها مما ادعاه . يعرض الرافعي على العريان ومخلوف أن يختارا أجود ما في الديوان لينظر فيه ثلاثتهم فما اتفقوا عليه فيه جعلوه حكمهم على الديوان كله . وليس وراء هذا في إنصاف خصم لخصمه في الأدب مذهب . فلما استبطأهما فيما انتدبهما له قال « أحسبكما لم تجدا ما تطلبان ولن تجدا ... إذن فلنقرأ الديوان معاً من فاتحته فما أحسب الشاعر يختار فاتحة الديوان إلا من أجود شعره ....! » وآخر قوله هـذا مظهر آخر لنفس الرغبة في إنصاف العقاد وإن كان أولها يدل على عقيدته في أدبه ويستشهد لما ضمناً بإبطاء أديبين في اتفاقهما على جيد في الديوان ينتقيانه ، كأن الجيد الذي يتفق على جودته قليل في ذلك الديوان. سيقال طبعاً إن هذا ليس بحكم يعتد به على الديوان ، فلو كان الأديبان الناظران فيه من المدرسة الجديدة لأسرع إليهما الاتفاق على جيد كثير . حسن . ولسنا نريد بما قلنا حكماً على الديوان ولكن نريد حكماً على الروح التي نظر بها الرافعي وأخواه فيه ، وهي روح إنصاف ورغبة في إنصاف من غير شك على نقيض الروح الذي نظر وينظر به سيد قطب ممثل المدرسة الحديثة في أدب عميد المدرسة التي يلقبها بالقديمة ولا يعجبه من أدبها ولا من روحها شيء

نظر الرافعي وأخواه في ديوان العقاد معاً ساعات طووه بعدها، وأشار الرافعي على مخلوف فكتب ، وهاج به العقاد ساخراً منه ومن دار العلوم، ولام مخلوفاً إخوانه على تهييج العقاد بدار العلوم، وألقى العريان تبعة ذلك اللوم على الرافعي يريد تحريكه لنقد الديوان؛ وتحرك الرافعي للنقد بعد تردد، ولكنه بعد إذ عزم مضى لا يبالي بما كان للعقاد يومئذ من سلطان مكنه له الأدب السياسي لدى القراء ، ولا يعتبر إلا مذهبه في الأدب وطريقته ، وسواء عنده أكان رأيه هو رأي الجماعة أم لا يكون ما دام ماشياً على طريقته ومنهجه كما يصف العريان

أي شيء في هذا يا ترى مما يمكن أن يؤخذ على الرافعي من قريب أو من بعيد ؟ لا شيء ! لا شيء يمكن أن يراه الناقد إلا ناقداً ينظر في أعمال الرافعي بمجهر البغضاء ثم لا يرى إلا ما يصوره الخيال . إنها حكاية واقعية غير عادية تصور الرافعي أستاذاً في مدرسته يلقى على تلميذين وزميلين له درساً عملياً في النقد وفي ما ينبغي للناقد من نزاهة في الحكم ، وتحرز من الهوى عند الخصومة ، وشجاعة في المنازلة إذا لم يكن من المنازلة بد، وتضحية في سبيل الغاية ، واستمساك بما يعرف أنه الحق . أما ما ارتآه العريان من تحفز كان بالرافعي لمعارك العقاد فالعبرة فيه بأن ذلك لم يسرع بالرافعي إلى تحيف العقاد وظلمه في ديوانه أو هضمه . وفي رأينا أن هذا مظهر لفارق أساسي آخر بين المدرستين : مدرسة الأدب الأخلاقي، ومدرسة الأدب غير الأخلاقي اللتين تتنازعان توجيه الأدب الآن ، وهو فارق نعرف أثره في كتابة

المنتسبين إلى كل من المدرستين ، نعرفه فى نزوع شاكر والمريان إلى الانصاف حتى من أنفسهما وصاحبهما ، وقد يثلوان فى ذلك أحياناً كما يشتد المدرس على ابنه التلميذ فى فصله مبالغة فى العدل بين طلبته ، ونعرفه في نزوع سيد قطب إلى التزيد والتحريف والاسراف

أما شاكر فانه أيضاً لم يسلم مما أصاب المريان من تحريف لقوله فى الرافعي . وقد مثل معه سيد قطب حكاية عمرو مع أبي موسى من جديد . لكن يكفينا الآن ما كتبنا فى تبيين القسم الأول من مغالطات قطب وتحريفاتها لننتقل إلى تحريفه أقوال الرافعى وهو أهم القسمين

إن آخر مثال ضربناه فى المقال الماضي لسوء فهم قطب هو فى الواقع أول مثال لتحريفه كلام الرافعى ليستقيم له وجه الاستهزاء به والزراية عليه . فقد ضرب الرافعى بنهر الكوثر يجرى بين شاطئين من ذهب على أرض من الدر والياقوت مثالا للشعر الخالد المطرد بقوله الحب فى حبيبته ، فجاء قطب وقال إن الرافعى لا يتشكك فى أن نهراً يجرى بين شاطئين من ذهب على الدر والياقوت « أجل » من نهر يجرى بين شاطئين من العشب الأخضر على أرض من الرمل والطين . ومهما تكن نتيجة المفاضلة بين النهرين عند المدرسة الجديدة من ناحية الجمال ، فان نتيجة المفاضلة بينهما من ناحية الخلود والاطراد ليست موضع شك عند أحد . ولو أخذ قطب الكلام على ظاهره لم يكن فيه مغمز يتغمز الرافعى به ، فلم يجد بأساً فى أن يضع الجمال بدلا من الخلود والاطراد فى كلام الرافعى ليصل إلى ما يريد . ولو غير مدرس للغة العربية فعل هذا لالتمسنا له العذر عن طريق جهله بمعانى الكلمات على وضوحها وبساطتها فى هذه الحالة ، لكن سيد قطب إخصائى فى اللغة العربية وأديب وشاعر فلا يمكن أن يلتمس له العذر من هذه الناحية ، ولم يبق إلا أن يكون تعمد التحريف فى كلام الرافعى ليصل إلى ما يريد . فاذا ما أصر على ما فعل ، وعدها على الرافعى غلطة بغلطات تكبر « الأسد الذى يخترق شوارع القاهرة » فى مثل زائر القاهرة الذى ضربه ليخلص إلى أن الرافعى « لم يحس الاحساس بجمال « الطبيعة بل... لم يوهب الطبيعة التى تحس هذا الجمال » — إذا أصر قطب على زلته إمعاناً فى تشويه الرافعى عند القراء كما فعل فى مقاله الحادى عشر زاد ذلك فى شناعتها وسقط بها فى هاوية مالها من قرار

وإلى مثل هذا عمد قطب حين أراد أن يتكلم عن حب الرافعى ليثبت أنه لا يعرف ما الحب وأن ليس له قلب يقول الرافعى :

« نصيحتى لكل من أبغض من أحب ألا يحتفل بأن صاحبته « غاظته » وأن يكبر نفسه عن أن يغيظ امرأة . إنه متى أرخى هذه الطرفين سقطت هى بعيداً عن قلبه ، فإنها معلقة إلى قلبه فى هذين الخيطين من نفسه » . وهى قطعة مقتبسة من كتاب « رسائل الأحزان » وهو تاريخ حب للرافعى انقلب إلى بغض كما بين ذلك سعيد المريان فى فصوله لمن لم يكن قرأ ذلك الكتاب، فالقطعة تدور كلها وتتوقف استقامة معناها على كلمة « أبغض » الواردة فى أولها . لكن سيد قطب لما لم يجد فيها كما هي موضعاً لهكمه ولا دليلاً على مزاعمه عمد إليها فحرف معناها بأن أسقط منها ما يؤدى معنى البغض وراح يصيح : « أرأيت ؟ — إن الحبيبة (بعد انقطاع الحب)[1] لا تتعلق بنفس من كان يحبها إلا بخيطين اثنين : غيظها له وغيظه لها ! ولا شيء وراء ذلك ! » ثم طفق يعلق على ذلك ماشاء له الحنق والبغض، وانتهى به الأمر فى مقاله الحادى عشر إلى أن يقرر فى غرور وتوكيد وإصرار : « فحين يقول الرافعى إن الحبيبة لا تتعلق بقلب حبيبها (بعد انتهاء الحب)[1] إلا بخيطين اثنين هما غيظها له وغيظه لها ... يدل على أنه لم يحس الحب يوماً ما ولم يحسن ملاحظته فى غيره ، بل لم يكن ذا طبيعة قابلة للحب ، ولا مستعدة لتلقى دفقاته وانفساحه ولو كتب بعد ذلك عن الحب ألف كتاب » . وتستطيع أن تتبين مبلغ إسرافه بهذا الكلام على الرافعى إذا وضعت فيه بدلا من « بعد انتهاء الحب » كلمات تؤدى معنى الرافعى مثل « بعد انقلاب الحب إلى بغض » . هنالك يتضح مبلغ جناية هذا الرجل على الرافعى وعلى الحقيقة وعلى النقد بذلك التغيير الطفيف الذى أدخله على كلام الرافعى جرياً فيما يظهر على قاعدة « الصدق الجميل » الذى يفرق عند هذا الناقد الجديد بين مدرسة الرافعى ومدرسة العقاد ...

بقى مثال واحد ثم نغلق هذا الباب . انتقد الرافعى بيت العقاد :

فيك منى ومن الناس ومن كل موجود وموعود تؤام

(١) الأقواس من عندنا

بما انتقده به وأخذ على العقاد، وإن في لفظ شديد، أنه لم يحترس مما يدخل في عموم « كل موجود » مما لا يليق أن يكون في حبيبة محب ذي ذوق . وأراد قطب أن يسخف نقد الرافعي فزعم أن الرافعي قال إن « كل موجود هو البق والقمل والنمل ... الخ » ولو نسب إليه أنه قال : « إن من كل موجود كذا وكذا ... الخ » لكان كلاماً ظاهر الصدق ليس فيه موضع للتسخيف الذي يريده صاحبنا والذي لا يتأتى إلا إذا سقطت « من » الدالة على البعضية . فلم ير صاحبنا مانعاً من إسقاطها ! وهل هي إلا حرف ذو حرفين يتحقق باسقاطه شيء من تصحيح الأمزجة والنفوس؟

وقد رد أخونا محمود شاكر هذه الغلطة من سيد قطب إلى أنه لم يفهم الفرق بين « من » في كلام الرافعي و « من » في كلام العقاد . وودنا لو أن الأمر كان كذلك فان عدم فهم الحرف أخف من تعمد إسقاطه ، لكن سيد قطب خريج دار العلوم وإخصائي في اللغة العربية يعلم منها تلاميذه كل يوم مثل هذا الذي يعتذر عنه محمود شاكر بأنه يجهله . فلم يبق إلا الاحتمال الآخر على ما فيه

تلك ثلاثة أمثلة حرف فيها صاحبنا كلام الرافعي تحريف الحاذق الماهر : تحريفاً طفيفاً من حيث اللفظ عميقاً من حيث المعنى ، ورتب على ذلك من النتائج الخطيرة ما لا ينتج من كلام الرافعي ، فهو قد نجنى على الرافعي مرتين : مرة بذمه ذماً بالغاً باطلا ، ومرة بتحريف كلامه لتبرير ذلك الذم . فصدق بذلك وبأغلاطه الأخرى ما نبهنا إليه من قبل من ازلاق مخاصم الحق وتورطه في أغلاط ومهاو ما كان لولا معاداته الحق ليتردى فيها وينتقم بذلك من نفسه للحق أبلغ انتقام

محمد أحمد الغمراوي

اقرؤا الرواية الخالدة

﴿ هكذا أغني ﴾

للشاعر الفذ محمود حسن إسماعيل

صدر حديثاً . ويقع في ٢٥٠ صفحة من الورق الصقيل
المزود بالشكل والتهاويل الفنية الرائعة
يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ، ومكتبة النهضة
المصرية وسائر المكاتب الشهيرة بمصر
ومن صاحبه بادارة الشؤون العامة بوزارة المعارف

ثمن النسخة الواحدة ١٠

الفروسية العربية

للميجر كاوب

ترجمة الأستاذ جميل قبعين

(تتمة)

وقد روى لي سمو الأمير عبد الله الحادث التالي : عندما كان الملك الراحل الحسين شريفا على مكة : كانت السلطة على البدو بيده برغم حكم الأتراك ؛ وفي يوم من الأيام بينما كان الشريف مع ولده الشريف عبد الله سائرين وقافلة في الصحراء أراد الشريف أن يسبق القافلة ليختار محلا لاقامة الخيام — فذهب معه ولده حتى وجدا محلا مناسبا تحت شجيرات، وكانت بجانبهم إبل ترعى بحماية ولد وأخته الصغيرة ، وكعادة العرب سأل الشريف الولد إلى أي قبيلة ينتمون، فأجاب الصبي من البقوم، فقال له الشريف « ألا تخاف أن ترعى على حدود بني عتيبة الذين قد يأخذون إبلكم » وكان الصبي منبطحا على ظهره يلوح بقدميه في الفضاء فأجاب « أيها الشيخ المجنون البارد، أنت لا تفهم » فأجاب الشريف: قد أكون مجنونا ولكني لم أعرف السبب بعد . فأجاب الولد قائلا « ألا تعلم أنه ما دام الحسين على السرج فنحن لا نخاف الغارات » وعند هذا الحد أقبلت القافلة فعرف الولد أن الذي كان يكلمه هو الشريف حسين ، تخاف كثيراً ولكن الملك الراحل طمأنه وسر من هذه الشهادة غير المقصودة . وبقي كل سنة يطلب الولد وأخته إلى مكة ويعيدهما إلى أهلهما مع النقود والملابس .

لقد قلت إن إحدى صفات البدوي القيام بأعمال غريبة لأثارة الأعجاب — ومن ذلك عادة الجاهلية. يحدث أن يعتدي على شرف بدوي أو غير ذلك من الأمور التي تستلزم الترضية، يرفض البدوي الترضية التي يقدمها المعتدي ويصر على الأخذ بالثأر — وعندها يجتمع شيوخ القبيلة في شبه وفد يذهب إلى بيت المعتدي عليه، وبطبيعة الحال يقدم لهم طعاماً يرفضون تناوله قبل أن يعد باجابة سؤلهم فيعد بذلك